سمات الحضارة الإسلامية

وتجذر أثرها في الحضارات الأخرى

يقول جورج سارتون *Sarton* [١]: إنه من سذاجة الأطفال أن نفترض أن العلم بدأ في بلاد الإغريق، لأن المعجزة الإغريقية سبقها آلاف الجهود العلمية في مصر، وفي بلاد ما بين النهرين وغيرهما من البلدان. أما العلم اليوناني فكان إحياء أكثر منه اختراعاً وكفى بالغربيين سوءاً إخفاءهم للأصول الشرقية التي لم يكن التقدم الهليني (الحضارة اليونانية القديمة قبل عصر الإسكندر الأكبر) مستطاعا بدونها.

ويسير على نفس الطريق سيديولوت *Sedillot*[٢] **الذي قال** : أنه تكونت فيما بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر مجموعة من أكبر المعارف في التاريخ، وظهرت منتوجات ومصنوعات متعددة، واختراعات ثنية، تشهد بالنشاط الذهني المدهش في هذا العصر، وجميع ذلك تأثرت به أوروبا بحيث يؤكد القول بأن العرب المسلمين كانوا أساتذتها في جميع فروع المعرفة. لقد حاول الأوروبيون أن يقللوا من شأن العرب المسلمين ولكن الحقيقة ناصعة يشع نورها من جميع الأرجاء.

والمتأمل للحضارة الإسلامية ، يعتقد – للوهلة الأولى – أنها التهمت كل شئ صادفته، ولكن الواقع أنها تقبلت كل مساهمة تساعدها على الاحتفاظ بهويتها مهما تغيرت الظروف. ومن ثم فإنها رحبت بفنون الجدل الإغريقية ومنهج التأويل الرمزي وسيكولوجية الزهد المسيحي كوسائل توسع بها دعامتها الأساسية . فأخذت بالطرائق "العقلية" التي تدعم البحث، وظل الإسلام قروناً عديدة سمحا بتقبل المعلومات والأصول

الفنية ومختلف الأشياء وألوان العرف والعادات من كل حدب وصوب، وكذلك دأب على نبذ كل ما لم يكن من المستطاع التوفيق بينه وبين أسلوبه في التفكير والإحساس[٣].

فلم يشهد تاريخ الحضارة الإنسانية، حضارة مثل الإسلام، حققت انفتاحاً على الحضارات الأخرى، فأثرت وتأثرت تلك الحضارات، بل أن علماء المسلمين، كانوا شديدي التواضع للعلم، وجابوا من أجله كل البقاع لتعلمه وتعليمه، ولذلك بقدر عدم خلو الحضارة الإسلامية، من ملامح حضارية إغريقية .. وغيرها، لم تخل الحضارات الإنسانية التالية عليها من تأثيرات إسلامية واضحة لا يخطئها المتأمل الموضوعي.

وكانت عملية التمثل الثقافي للإنتاج الحضاري الإنساني في الحضارة الإسلامية أشد انتقاءاً وعمقاً، حيث ساعد على النهوض والتجديد دون إخلال بالأصالة والهوية.

ومن المحتمل أن ما يتخذه الإسلام من تسامح ورحابه صدر إزاء المادة الأجنبية ومقدرته على تمثلها، قد يثير في النفس شعوراً بأنه تعوذه الأصالة. ولكن أصالة الإسلام إنما تظهر بالضبط في قدرته على تكييف الإلهام الدخيل وفق حاجاته، وفي خلقه إياه خلقا جديداً يسبغ عليه طابعه الخاص، وفي نبذه كل ما لا يقبل التكيف [٤].

سمات الحضارة الإسلامية :

١- حضارة ربانية مؤمنة:

هذه الحضارة ليست شرقية ولا غربية في منشئها وغاياتها في نظامها وروحها وهي ليست مادية ولا بشرية عنصرية، ولذلك فهي تتقدم لصالح البشرية، ولنشر الهداية الربانية لتعميمها علي الأفراد والعباد جميعا،ولخدمة عباد الله للتقدم الروحي والمادي والسمو علي الغرائز الحيوانية والشهوات الجامحة،هذه الروح المؤمنة الخيرة يجب أن تسرى في جميع جوانب الحضارة سريان الدم في عروق الجسم. كما أن فروع العلم تخضع

لهذه الخاصية سواء علوم الدين أو علوم الدنيا، سواء كان مصدرها الوحي الإلهي أو العلم المكتسب.

٢- حضارة أخلاقية خيرة:

إن الوجهة الحضارية الإسلامية لا تسعى أول ما تسعى لرفعة المباني وتجميل المدن والطبيعة والإكثار من الأسلحة المبيدة للبشرية، وإنما تسعى أولا وقبل كل شيء لبناء الأجيال بناءا أخلاقيا وتجميل سلوكهم وتحسين بنياتهم وغاياتهم قبل تجميل المظاهر وتحسينها ثم تبدأ في التقدم في مجالات الحضارة المختلفة. عندئذ سوف يكون الظاهر منطبقا علي الباطن ويعم الخير ويزول الشر من النفوس والحياة الاجتماعية ولا يمكن أن يتم هذا وذاك إلا بتربية الجيل تربية حضارية متكاملة.

إذن هذه الخاصية تحقق الهدف الخلقي الذي وجهت إليه عناية عظيمة من المسلمين كما يظهر من آثارهم التربوية التي أظهرت الاستيعاب الكافي للأسس السيكولوجية والسلوك الاجتماعي والشخصي والإقتداء بالنماذج البشرية في التربية.

٣- حضارة متكاملة :

الحضارة الإسلامية متكاملة ومتوازنة ومتناسقة بين عناصرها المختلفة بمراعاة الطبيعة الإنسانية وحاجاتها الأساسية من الحاجات الجسمية والعقلية والروحية فإذا كانت الحضارة لا تشتمل علي جوانب الطبيعة الإنسانية ولا تحقق جميع الحاجات الطبيعية للإنسان وكذلك لا تحقق التوازن في تحقيقها وإشباعها فلن تستطيع أن تشيع الطمأنينة والإستقرار. كذلك إذا لم تتقدم الحضارة تقدما متوازنا ومتناسقا بين الناحية المادية والروحية والأخلاقية فإنها تفشل في التأثير الإيجابي علي المجتمع وأفراده.

والإنسان في الوجهة الحضارية الإسلامية وحدة متكاملة وقواه المختلفة موحدة الاتجاه. فهو ليس جسما مستقلا لذاته عن الروح والعقل. وليس عقلا منفصلا لا علاقة له بالجسم والروح. وليس روحا هائمة بلا رباط من عقل وجسم، بل هو كيان واحد متكامل الأجزاء،

٤- حضارة متدرجة:

من المعلوم أن هدف الوجهة الحضارية الإسلامية يتمثل ببلوغ الكمال الإنساني غير أن هذا الهدف لا يمكن بلوغه إلا بالتدرج. ولقد كان واضحا كيف أن آيات القرآن الكريم وأحكامه نزلت بالتدرج طيلة فترة التبليغ التي زادت عن ثلاث وعشرين سنة

٥- حضارة متفوقة ومسعدة للبشرية:

تبدو ملامح الوجهة الحضارية الإسلامية في العلوم الهامة وفي تحقيق الحاجات البشرية الأساسية ولإزالة الشرور والمفاسد من الحياة الإنسانية، والسعادة - من منظور الوجهة الحضارية الإسلامية - لا تتحقق إلا بشرطين أساسيين هما سيادة الخير وتعميمه وإزالة الشرور ثم إن الحضارة التي تقيمها التربية الإسلامية لا تؤدي إلي السعادة في هذه الدنيا فقط وإنما تؤدي إلي السعادة الحقيقية في الآخرة أيضا.

٦- حضارة إنسانية عالمية:

تقوم التربية الإسلامية في ظل الوجهة الحضارية الإسلامية بتكوين شخصية إنسانية قوية بها يستطيع الأفراد السيطرة علي نوازعهم وغرائزهم ودوافعهم المختلفة وبها يستطيعون تحمل مسئوليات الحضارة وأعبائها وتسييرها في خطها المرسوم ودفعها نحو غايتها السامية. كما أنها تكوّن في الأفراد روحا إنسانية خيرة بها يستطيعون أن يستخدموا علومهم ومعارفهم وإمكانياتهم المادية والمعنوية في سبيل الخير وبها يتسابقون

من أجل إنجاز الأعمال والمشروعات الخيرة وبها يخترعون اختراعات ويسنون سننا حسنة من أجل نشر الخيرات وإزالة الشرور ويجعلون الحضارة حضارة إنسانية خيرة.

٧- حضارة تراعي حاجات النفس الإنسانية:

إن الوجهة الحضارية الإسلامية تهتم كثيرا بالكشف عن أسرار الطبيعة وذلك أن الشرور التي تعاني منها البشرية آتية من قبل البشر أو ناشئة من أيديهم أكثر مما هي ناشئة من الطبيعة نفسها. فللقضاء علي تلك الشرور أو الحيلولة دون وقوعها يتطلب معرفة الطبيعة البشرية وأسرارها وجعلها محكومة بالروح الخيرة وإعطاء قيادتها للإرادة الخيرة.

ولهذا كله نرى أن هذه الوجهة الحضارية الإسلامية تعمل أولا وقبل كل شيء بتعمير البواطن وتجميلها وتحسينها وتحليتها بالروح الخيرة والنيات الحسنة وبتعبير آخر أنها تبدأ بتعمير الطبيعة الإنسانية قبل تعمير الطبيعة وتجميلها. ذلك أن البشرية لن تسعد بمجرد التقدم في ميادين العلوم والاقتصاد والصناعة ولا في الكشف عن مظاهر الطبيعة وباطنها إن لم تتقدم في التربية الإنسانية تربية خيرة.

أثر الحضارة الإسلامية في الحضارات الأخرى

لقد شهد مؤرخو الحضارات بأثر الحضارة الإسلامية في غيرها ، وقد أشرنا من قبل إلى جورج سارتون *Sarton* [٥] الذي قال : إنه من سذاجة الأطفال أن نفترض أن العلم بدأ في بلاد الإغريق، لأن المعجزة الإغريقية سبقها آلاف الجهود العلمية في مصر، وفي بلاد ما بين النهرين وغيرهما من البلدان. أما العلم اليوناني فكان إحياء أكثر منه اختراعاً

وكفى بالغربيين سوءاً إخفاءهم للأصول الشرقية التي لم يكن التقدم الهليني (الحضارة اليونانية القديمة قبل عصر الإسكندر الأكبر) مستطاعا بدونها.

وإلى **سيديولوت *Sedillot*[٦] الذي قال** : أنه تكونت فيما بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر مجموعة من أكبر المعارف في التاريخ، وظهرت منتوجات ومصنوعات متعددة، واختراعات ثمنية، تشهد بالنشاط الذهني المدهش في هذا العصر وجميع ذلك تأثرت به أوروبا بحيث يؤكد القول بأن العرب المسلمين كانوا أساتذتها في جميع فروع المعرفة. لقد حاول الأوروبيون أن يقللوا من شأن العرب المسلمين، ولكن الحقيقة ناصعة يشع نورها من جميع الأرجاء.

والحضارات التي تأثرت تأثرا واضحا بالعطاء الإسلامي هي :

- الحضارة العربية المسيحية
- الحضارة الأرثوذكسية الروسية
- الحضارة الصينية
- الحضارة الهندية
- الحضارة الإفريقية

وسوف نأخذ مثالين اثنين فقط من تلك الحضارات هما الهند والصين لأن الحضارات الغربية تنوولت في مؤلفات عديدة :

الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية

لا يخلو منزل في العالم العربي من منتج صيني !! ومع ذلك كان موقف الصين وروسيا مخزيا خلال اجتياح الصهاينة غزة على مدى ثلاثة وعشرين يوما ، فلم تتحمس روسيا لا

رسميا ولا شعبيا لمناهضة الغزو الصهيوني ، ولم تتحرك الصين الرسمية قط ، فقد كانت منشغلة بالاحتفال بمرور ثلاثين عاما على إقامتها علاقات دبلوماسية مع أميريكا ، وإن كانت شوارعها قد شهدت مظاهرات ضعيفة للغاية نددت بما يحدث في غزة وعلى الرغم من هذا الموقف المخزي ، فإن كثيراً من المحللين السياسيين ، يتوقعون أن الصين سوف تتبوأ الصدارة في قيادة العالم خلال الربع الأول من القرن الحالي (الحادي والعشرين الميلادي) ، ويستندون في ذلك إلى عوامل مختلفة منها :

١- إن الولايات المتحدة الأمريكية بوصفها القوة الأعظم حالياً سوف تأخذ في الانهيار بفعل قوى متعددة كالديون والبطالة والتمييز العنصري ومحاولات بعض الولايات الغربية الاستقلال.. والكوارث البيئية ...إلخ، وذلك خلال السنوات العشرين الأولى من هذا القرن.

٢- إن القوتين المرشحتين لخلافة أمريكا في قيادة العالم هما : الصين والاتحاد الأوربي . وبما أن الاتحاد الأوربي تحكمه خلافات عرقية متعددة ونزاعات مصالح اقتصادية متعددة ؛ فقد يفقد قدرته على التوحد مقارنةً بالصين.

٣- إن الصين -التي تتظاهر دائماً بأنها دولة نامية- تتبع سياسة انتشار هادئة ودقيقة ومنظمة من خلال نشر ثقافتها ومنتجاتها ودخولها في عدد من الاتفاقيات التجارية على أوسع نطاق عالمياً ومن ثم فإنها كالنمر الرابض الذي سيثور فجأة ليفترس كل من يهدد حياته.

وهي بحكم كثافتها البشرية (١.٤ مليار) التي تمثل "سدس" العالم تقريباً قادرة على تجييش الجيوش التي تستخدم ما لديها من أسلحة من ضمنها أسلحة دمار شامل. لهذا كله، يهمنا كمسلمين أن نوثق علاقاتنا بالصين، وأن نتعرف أكثر هوية هذا الشعب

العجيب الغريب . ويأتي في المقام الأول -في هذا الصدد- أن نتعرف واقع مسلمي الصين وما ينتظرهم من مستقبل . متى أسلم الصينيون؟ : لقد دخل الإسلام الصين في وقت مبكر جداً من ظهور الإسلام، فهناك روايتان إحداهما ضعيفة -في نظرنا- لعدم وجود ما يؤيدها في كتب السيرة والسنة التي بين أيدينا برغم أنها الرواية الأكثر شيوعاً بين الصينيين .

وتزعم هذه الرواية أن الإسلام دخل إلى الصين في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - على يد الصحابي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عندما بعثه النبي استجابةً لرغبة ملك الصين.

والرواية الثانية وردت عند الطبري، وتؤيدها المدونات التاريخية الصينية وخلاصتها: أن القائد المسلم "قتيبة بن مسلم الباهلي" هو الذي فتح الصين سنة ٩٦ هجرية، في عهد الامبراطور (يونج هوي ٦٥١م)، وتقول هذه الرواية: إن ملك الصين اجتمع بالوفد الذي أرسله إلي قتيبة عارضاً إما الحرب أو الدخول في الإسلام أو الجزية. وكان الوفد يتكون من عشرة من جيش قتيبة، وقد حملهم قتيبة رسالة بالمعنى السابق وذيّلها بقوله: إنه أقسم ألا ينصرف حتى يطأ أرضهم، ويختم ملوكهم، ويجبي خراجهم، ورأى ملك الصين أن يبعث إليه بصحاف من ذهب فيها تراب من أرضه حتى يطأه بقدمه إبراراً بقسمه. كما بعث إليه حريراً وذهباً وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ختمهم قتيبة وأعادهم وأخذ الذهب. وكان نزول قتيبة في منطقة (كاشغر) التي ذكرها الطبري وهي أقرب بلاد الصين إلى ما كان المسلمون قد فتحوه من بلاد ما وراء النهر، وهي تقع حالياً في مقاطعة (شينج يانج) غربي الصين.

وفيما تلا ذلك من سنوات تزايدت وفود العرب إلى الصين لأهداف تجارية ودعوية؛ مما أدى إلى سِرعة انتشار الإسلام في الصين.

وإن كان هذا الانتشار محدوداً بالقياس إلى عدد سكان الصين.الوضع الحالي لمسلمي الصين: في الصين عدد من المسلمين -طبقاً لتقديرات سنة ٢٠٠١م حسبما بثته قناة المعلومات الإسلامية المستقلة- يتراوح بين ٣٥ إلى ٤٠ مليون مسلم، وفيها أربعة وثلاثون ألف مسجد، وأكثر من أربعمئة منظمة إسلامية. وترجع صعوبة معرفة العدد الحقيقي للمسلمين إلى أن الحكومة تقيم إحصاءاتها الرسمية على القوميات لا الديانات.

ولكن مشكلة هؤلاء المسلمين أنهم [وإن كان عددهم يعادل عدد سكان دولة مسلمة بكاملها] لا يمثلون ثقلاً سياسياً في الصين، لأنهم لا يؤلفون -فيما بينهم- جماعة واحدة لها مصالح مشتركة *Imagined Community*. بل إنهم متفرقون في جماعات عرقية متعددة. وقد صنفت الحكومة عشر قوميات تضم غالبية المسلمين - وليس كلهم- من مجموع ست وخمسين قومية !. تعليم المسلمين في الصين:كما هو الحال في البلدان الإسلامية جميعاً؛ بدأ تعليم المسلمين في بلاد الصين من خلال المساجد، ثم الكتاتيب (المكاتب) التي تقوم بتحفيظ القرآن الكريم حتى كان عام ١٩٢٨ حين أنشئت "مدرسة التعليم الإسلامي" بشنغهاي لإعداد أئمة مساجد ومعلمين للغة العربية.

وبعد عام أي في ١٩٢٩ أنشئت في المدينة ذاتها (الجمعية الإسلامية) لإعداد الأئمة وإنشاء وإدارة المدارس ونشر الكتب الإسلامية بحيث صار للمسلمين أكثر من عشر صحف ومجلات وعشرون مدرسة متوسطة وابتدائية إسلامية وانتشرت المراكز الإسلامية التعليمية.

وفي نوفمبر ١٩٥٥ م أنشئ المعهد الإسلامي في بكين لتثقيف المسلمين وإعداد الأئمة وفي المعهد نوعان من الدراسة: دراسة عادية للطلاب المسلمين مدتها أربع سنوات.- دراسة دينية خاصة للكبار مدتها ستة أشهر.وتضم مكتبة المعهد حالياً خمسين ألف مجلد، وثلاثة

معامل للكيمياء والفيزياء والأحياء وبه كذلك متحف.وقد يُصاب القارئ بالدهشة حين يقرأ أن عدد المساجد بالصين كان نحو ٤٠ ألف مسجد عام التحرير ١٩٤٩، ثم صار ٢٤ ألف مسجد، ثم ٣٤ ألف مسجد، فهذا التناقض مرجعه إلى المد والجزر الذي تمارسه الشيوعية بين حين وآخر مع المسلمين.

الدور التربوي للمساجد في الصين: ومع ذلك فقد استطاعت التربية الإسلامية من خلال المساجد في الصين أن تحقق كثيراً من أهدافها:

١- توثيق صلة مسلمي الصين بالدول الإسلامية ومسلميها.

٢- محافظة المسلمين في الصين على هويتهم فلم يذوبوا في الثقافة الكونفوشيوسية السائدة حولهم .

٣- التقريب بين الفرق والمذاهب والجماعات الإسلامية المختلفة، وتأكيد أهمية وحدة المسلمين

٤- تخريج أعداد وفيرة من العلماء والمعلمين والأئمة ممن لهم دراية بثقافة الصين وتقاليدها وديانتها. وقد كان لهؤلاء الرواد من العلماء الصينيين أثر بالغ في زيادة الإقبال على الإسلام، ومنهم ("وان داي يون"، و"ليوجي" و"ماجون" .. وغيرهم).

٥- رفع المستوى الثقافي والأخلاقي للمسلمين الصينيين من خلال المناهج الدراسية الميسرة والممتعة. مستقبل الإسلام في الصين ودور التربية:يقع على عاتق التربية الإسلامية مهمة زيادة نشر الوعي بالإسلام بين الصينيين لاسيما بعد أن سمحت بعض الجامعات الصينية بدراسة الإسلام في تخصصاتها، حيث تخرج دفعة ماجستير سنة ١٩٨٦ في تخصص "الدراسات الإسلامية". وقد حدث

تقارب بين الإسلام والصين حيث أكد مسؤول وزارة شؤون الأديان في المؤتمر الصيني السابع لمجلس الشعب في بكين هذا التقارب، ونتج عن ذلك صدور قرار باعتبار (الجمعية الإسلامية الصينية مسؤولة عن الإشراف على إدارة وتنظيم المساجد، وبذلك أصبحت الجمعية مسؤولة رسمياً عن تعيين الأئمة، وتجري لهم امتحانات في مقرها في بكين قبل تسليمهم العمل.

- كما تمثل الجمعية الدولة في استقبال الوفود الإسلامية ومرافقتها.وحتى يتعزز هذا الدور، خاصة في ظل الهجمة الغربية على الإسلام بعد أحداث ١١ سبتمبر في أميركا . ينبغي أن تسعى المنظمات الإسلامية إلى دعم الدور التربوي للهيئات الإسلامية في الصين من خلال :

١- زيادة أعداد المنح الدراسية لأبناء الصين في الجامعات الإسلامية في الدول العربية.

٢- تزويد مكتبات المساجد والمدارس الصينية بالكتب والمراجع وترجمات معاني القرآن الكريم

٣- مساعدة الأقلية المسلمة في الصين مادياً لدعم إنشاء مدارس أهلية لتعليم اللغة العربية لأبنائها

٤- تشجيع الترجمة من العربية إلى الصينية والعكس لزيادة التعاون المتبادل بين المسلمين.

٥- إرسال وفود من رابطة العالم الإسلامي ، والأزهر، ومنظمة المؤتمر الإسلامي للإصلاح والتوفيق بين التيارات المتناقضة في الصين.

٦- أن تقوم الهيئات السابقة باستضافة العلماء المسلمين الصينيين من حين لآخر ليعايشوا البلاد العربية ويزوروا مكتباتها.

٧- استخدام التكنولوجيا الحديثة (الأشرطة بأنواعها واللوحات والرسوم وشبكة المعلومات الدولية) في تحقيق أكبر قدر من الثقافة الإسلامية للشباب الصيني المسلم. وتبادل زيارات طلاب الجامعات الصينية مع الجامعات الإسلامية العربية.

على الرغم من العزلة النسبية التي أحاطت بتطور حضارة الصين، إلا أنها تقف وسط حضارات العالم العظيمة في تكوينها وانجازاتها ودلالتها. فقد تطورت الصين بنفسها وساعدتها على ذلك عزلتها الجغرافية – كان الشعب الصيني في تراثه التقليدي يعتبر نفسه مركزاً للكون. وكلمة شينج – كيو *Chung - Kuo* وهي الاسم الصيني للصين، تعني حرفيا مملكة الوسط فقد عد الصينيون أنفسهم، على نحو ما فعل الإغريق، جزيرة من الثقافة وسط بحر من التوحش والهمجية.

لعبت ثلاث ديانات الدور الرئيسي على مدى ثلاثة آلاف سنة من التاريخ الصيني وهذه الديانات هي الكونفوشية، والتاوية، والبوذية، أما الكونفوشية والتاوية فهما ديانتات قوميتان أصيلتان في الصين، وجدتا قبل دخول البوذية إليها من الهند بحوالي خمسمائة سنة، وحتى قبل ظهور الكونفوشية والتاوية كانت هناك ديانة أقدم (تفرغت عنها الكونفوشية والتاوية كل بطريقتها الخاصة). وسيطرت هذه الديانة القديمة على الصين لما يقرب من ألف سنة. وهكذا امتد تاريخ الدين في الصين لأكثر من ألف عام ونصف الألف قبل أن تواجه أفكاره تحدى التراث الأجنبي [٧].

وليس أدل على قوة الثقافة الدينية الصينية من أن البوذية، حينما وفدت إليها تطبعت بالثقافة الصينية، وظهرت المدارس البوذية الصينية الخالصة، لكن هذا لم يمنع من وجود تأثير قوى للفكر الهندي وتجربته الدينية على عقول الصينيين حتى أنه غير من الكونفوشية والتاويه، اللين عادتا إلى الظهور في شكلين جديرين هما: الكونفوشية الجديدة والتاوية الجديدة الذين يمثلان جوهر الحضارة والثقافة الصينية. وتقوم الفلسفة الصينية على أهمية المحافظة على الحياة الإنسانية العظيمة ورعايتها. من خلال فهم جيد للعالم وجعل الناس عظماء.

ولكون المرء عظيما وجهان، في الفكر الصيني، فهو في المقام الأول يتضمن "عظمة داخلية" هي شموخ الروح، منعكساً في سلام الفرد ورضائه بكماله. وهو يتضمن ثانيا "عظمة خارجية" تظهر في القدرة على العيش بصورة جيدة على الصعيد العملي، مع الشعور العزة في السياق الاجتماعي الذي يوجد فيه المرء في حياته اليومية المألوفة . وهذا المثل الأعلى يسمى بالحكمة في الداخل والنبل في الخارج "ويقول حكيم الصين لاوتسو *Laotzu* "إنه ما لم يعرف المرء ويجى وفقا لقوانين الكون الداخلية التي يسميها (الثوابت) فإنه ينتهي بكارثة"، ويسمى معرفة الثوابت بالاستنارة. ومن يعرف الثابت يتحرر، ومن يتحرر يخل من الهوي والتحيز، ومن يخل من الهوى والتحيز يتسع إدراكه ،ومن يتسع إدراكه يصبح رحب الأفق، ومن يصبح رحب الأفق يكن مع الحقيقة، ومن يكن مع الحقيقة يستمر إلى الأبد، ولا يعرف الفشل على امتداد عمره. أم الجهل بالثابت والتصرف على نحو يفتقر للبصيرة فهو مضى إلى الكارثة [٨].

هكذا تبدو حضارة وثقافة الصين لا تخل من التعاليم الطيبة، وتؤكد على الأخلاق والحياة الروحية، فالروح وليس الجسم، هي الجانب الأهم في الوجود البشري.

وتذكر التواريخ الصينية أن أول دخول الإسلام في الصين ، كان في أيام أسرة تانج التي عاصرت البعثة المحمدية، وعصر الراشدين وعصر بني أمية. وكان القادمون إلى الصين من المسلمين تجاراً دخلوا بلاد الصين من الجنوب أيام بني أمية ، فاستقروا في كانتون حيث أنشئوا لأنفسهم جالية زاهرة، واتخذوا المساجد، وأطلق عليهم أهل الصين لقب هوى هوى، واستمر الإسلام يتوسع في الصين، حتى قرر ماركو بولو الذي عاش في الصين فيما بين سنة ١٢٢٧٥ ، ١٢٩٢ أن أعداداً كبيرة من المسلمين تعيش في إقليم يونان. وكذلك وصف ابن بطوطة الذي زار الصين في منتصف القرن الرابع عشر، ترحيب إخوانه المسلمين فيمدن الصين به، وقرر أن كل مدينة من مدن الصين فيها هي للمسلمين، ينفردون بسكناه ولهم فيه المساجد العامرة. وتمتع الإسلام في الصين بقبول حسن، ولقي المسلمون معاملة طيبة طوال عصر أسرة تانج، التي انتهت سنة ٩٦٠م، فلما خلفتها أسرة سونج، ازدادت التجارة ازدهاراً ، وتزايد توافد المسلمين على الصين، وأصبحت كل تجارة الصين مع بقية بلاد الشرق وأوروبا في أيدي المسلمين ، فعرفت أوربا حرير الصين وخزفها وتحفها وصناعاتها الدقيقة عن طريقهم، وحملوا إليها متاجر أوروبا وغرب آسيا، ونظراً لما امتاز به المسلمون من خلق طيب ، وأمانة والتزام بالقوانين، فقد احترمهم شعب الصين، وزاد انتشار الإسلام تبعا لذلك، ويقرر المبشرون الكاثوليك في القرن التاسع عشر، إن عدد المسلمين في الصين زاد زيادة عظيمة، ويردون هذه الزيادة إلى أن عدد المسلمين في الصين سنة ١٩٥٠ خمسونا مليوناً ، أي واحد إلى اثنى عشر من سكان الصين، أي أن الصين تجئ الخامسة في أعداد المسلمين فيها بعد أندونيسيا وبنجلاديش والهند وباكستان. (٩).

والمتأمل في تاريخ العلم يلاحظ أن الصين – بوجه عام – تخلفت نسبيا عن العرب والغرب منذ حوالي القرن الحادي عشر، ويشير كثير من الباحثين الموضوعيين إلى أن العرب

المسلمين لعبوا دورا مهماً في نقل الأفكار الرياضية للعلم الصيني خال عصر يوان *Yuan* (١٢٦٤ – ١٣٦٨م) ومع أن الصينيين أسهموا كثيراً في تقدم الرياضيات (ولاسيما في علم الجبر) والفلك، فإن هذه المساهمات لم تكن تقع على الطريق المؤدي إلى علم الفلك الحديث على الصورة التي اتخذها في الإسلام والغرب. أما علمي الهندسة والمثلثات، باعتبارهما يقومان على الاستنباط المنظم للبراهين والأدلة، فلم يكن لهما وجود في الصين على الرغم من أهميتها في التقدم عند وضع النماذج الفلكية. أما الفلكيون العرب فكانوا قد أعدوا أزياجاً كثيراً تسجل الإحداثيات الفلكية لكثير من المواقع في كل أنحاء الشرق الأوسط بسبب اختلاف المواقيت تبعا لاختلاف المواقع. وأدت عيوب الصين في هذا المجال إلى أن يستخدموا فلكيين مسلمين في المكتب الصيني للفلك منذ القرن الثالث عشر فصاعداً دون انقطاع . وقد أسس مكتب إسلامي خاص للفلك في الصين سنة ١٣٦٨م كان ما يزال يعمل حينما وصل المسيحيون في القرن السادس عشر، وعندما وصل المسيحيون كانت هناك أربعة نظم فلكية منافسة: النظام الصيني التقليدي ، والنظام الإسلامي (القائم على التقويم القمري)، والنظام الأوروبي الجديد، ونظام المكتب الشرقي الجديد [١٠].

لذا فإن نيدم *Needham* لاحظ أن التأثيرات الرياضية العربية كانت لها فرص لا شك فيها للإندماج بالتراث الصيني. كذلك نلاحظ أن الصينيين لم يبرعوا مثل المسلمين يعلم البصريات ، خاصة فيما يتصل بتطوير التلسكوب والمجهر، وهما الآلتان اللتان لعبتا دوراً أساسياً في تطور علمي الفلك والطب.

وقد كان العربي المسلم ابن الهيثم (المتوفي سنة ١٠٤٠م) ساهم بنصيب وافر في تطوير هاتين الآلتين وكانت أعماله قد أرست أسس علم البصريات الحديث، وإن كان نيدم يرى أن الصينيين في أوائل العصر الوسيط كانوا على الإطلاع على ما كان يجرى في

علم البصريات عند العرب، إلا أنه يعترف بأنهم عانوا كثيراً من افتقارهم للهندسة الاستنباطية اليونانية التي كان العرب قد ورثوها عن اليونانيين ، وطوروها [١١].

وهكذا يبدو واضحا، وجود علاقات علمية وحضارية بين الحضارتين الإسلامية والصينية، وكانت الأخيرة قد نهلت كثيراً من الأولى مثلما أوضحنا في النماذج السابق الإشارة إليها. لكن هذه العلاقات ليست على النحو الأولى افترضه هنتنجتون في كتابه "صدام الحضارات: إعادة صنع النظام العالمي". يستدل "هنتنجتون" لتبرير دعواه بالمواجهة التي حدثت أثناء مؤتمر حقوق الإنسان في فيينا بين الغرب وبين اتحاد الدول الإسلامية الكونفوشية الرافضة لمبدأ العالمية الأمريكية ، ومما يثير العجب استناد "ننتجتون" إلى ملاحظة ضعيفة في دعم رؤيته وهي أن الصين تبيع مكونات صواريخ لإيران وتساعد باكستان على إنتاج صواريخ. وبهذا التحليل السطحي يربط "هنتنجتون" بين الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية، ويعتبرهما معا مصدر التهديد القوى والمباشر لمستقبل الحضارة الغربية. ويرى أن المواجهات الأكثر عنفاً ستجمع المسلمين بباقي الحضارات (وخاصة الكونفوشية) ضد الحضارة الغربية، وسيكون الانقسام الأساسي على المستوى العالمي – من وجهة نظره – بين الكبرياء الغربي واللاتسامح الإسلامي والرغبة في تأكيد الذات من جانب الصين . ويؤكد وجود محور تعاوني إسلامي كونفوشيوسي يجمع بين مجموعة من الدول الإسلامية والكونفوشيوسية، ولذلك يطالب بمنع هذا المحور من التسلح العسكري وخاصة التسلح النووي [١٢].

الحضارة الإسلامية والحضارة الهندية

الهند دولة ذات حضارة قديمة، ويعتقد المؤرخون أنها بدأت قبل الميلاد بنحو أربعة آلاف سنة، ومع ذلك من الصعب تقديم تطوير معرفي كامل ومتسلسل عن هذه الحضارة. وثمة آراء تختلف حول حضارة الهند، حيث يعتقد البعض بوجود حضارة هندية واحدة، بينما يذهب آخرون إلى وجود حضارات متتالية وتأثيرات متعددة.

ويوجد في الهند ما يقرب من ٢٤٠ لغة ونحو ٣٠٠ لهجة ما عدا اللغة الفارسية والبهلوية والصينية والإنجليزية والسنسكريتية. وتعتبر المعتقدات الدينية في الهند أساساً لجميع النظم الاجتماعية، فما في الهند من نظم اجتماعية ليس بالحقيقة إلا نظماً دينية(١٣).

وتنتشر في الهند ديانات عديدة، وإن لم تبلغ من الكثرة مبلغ اللغات، فالأديان المشهورة في الهند هي: الهندوسية والإسلام والبوذية والسيكية والمسيحية بجوار مذاهب أتباعها قليلون جداً، ولكن الذي يهمنا في البحث الراهن هو الديانات ذات التأثير الواضح في الحضارة الهندية، وهم الهندوسية والإسلام والبوذية، والهندوسية هو إتباع أو عبادة الإله فشنو *Vishnu* أو شيفا *shiva* أو الإله شاكتي *Shakti* أو تجسيداتهم، أو مظاهرم أو أزواجهم أو ذريتهم. وهكذا يندرج ضمن الهندوسيين عدد كبير من أتباع عبارة عن راما وكرشنا *Rama & Krishna* (وهما تجسيدان لفشنو) وأتباع عبادة درجا *Durga* وسكاندا *Shanda* وجانيشا *Ganesa* (وهما على الترتيب زوجة شيفا وابناه) لكن ينبغي أن نستبعد براهما *Brahma* وسيريا *Surya* أي الشمس، اللذين كان لهما من قبل عبارة خاصة ومعابد خاصة، كما ينبغي كذلك أن نستبعد قلة هم أولئك الذين يعتبرون

التراث الفيدي *Vedic* (نسبة إلى الفيدا *Veda*) كتاب الهندوس المقدس) هو التعبير الرئيسي عن الدين، وهو تراث أسبق من التراث الهندوسي.

وعلى كل حال فالهندوسية تشتمل على كثرة من العبادات والفرق التي تقترب قليلاً أو كثيراً من الاندماج في التراث بالغ القدم. وعلى حين أن المفاهيم والممارسات العملية التي يرعاها هذا التراث القديم تؤثر في هذه العبادات والفرق وتضفي عليها طابعاً هندوسياً مميزاً ، فإن هذا التراث القديم ذاته هو الحصيلة النهائية لمؤثرات ثرية أتت من القارة الهندية، بحيث استوعبت في داخله جميع الآلهة المحلية، وآلهة القبائل وكثرة من الطقوس والفلسفات (١٤).

ويجدر الإشارة إلى أن تناول الفلسفة الهندوسية على نحو تفصيلي وتحليلي يتطلب بحثاً متخصصاً في هذه النقطة تحديداً، ولكن –وبإيجاز شديد– تقوم الفلسفة الهندوسية على مجموعة من المعتقدات الأساسية وهي: عبادة قوى الطبيعة – تشخص هذه القوى بأسماء الآلهة – الاعتقاد في خلود الروح – عبادة الأجداد – الميل إلى إخضاع الطبيعة والناس والآلهة لإله واحد أقوى منها وهو الإله أندرا – أساس الدين أو حقيقته تنحصر في تبادل الإنسان قرابينه، وأن تمنحه الآلهة الكثر واليسر والمطر المبارك والصحة والكنوز.

أما البوذية، فإن موطنها الأصلي هو الهند، ثم انتقلت من الهند إلى ما حولها الصين واليابان وبورما، حتى أصبحت هذه البلاد هي الموطن الحقيقي لازدهار البوذية بعد أن تقلص شأنها في الهند.

ويعرف هذا المذهب على مستوى العالم باسم "البوذية" ، أما في موطنه في آسيا فيعرف باسم بوذا – ساسانا *Buddha – Sasana* معنى طريقة حياة أو نظام الواحد المتيقظ وهو البوذا . ويعرف أيضا باسم بوذا – داهما *Gautama – Dhamma* بمعنى

داهما – الحقيقة الخالدة والمقصودة هنا بوذا أو جوتاما *Gautama* الذي عاش في شمالي الهند في القرن السادس قبل الميلاد (سنة ٥٥٧ ق.م) وبوذا هذا لقب له، ومعناه "العالم المستنير".

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن بوذا كان نبيل الفكر قوى الروح ماضي العزيمة واسع الصدر عزوفاً عن الشهوات، زاهداً كريم النفس ، حسن المعاشرة، بريئا من الحقد والعدوان جامداً لا ينبعث فيه حقد ولا بغض، ولا تحركه عواطف ولا تهيجه نوازل، وكانت البوذية في أول أمره مذهبا خلقيا يرمي إلى تزكية النفس وتحررها من الشهوات، ويدعو إلى الحب والتسامح، والعمل بقدر ما يمكن للتخفيف من آلام الإنسان، لا فرق بين إنسان وآخر (على عكس الهندوسية التي تؤكد على التمايز الطبقي) . ولم تهتم البوذية بالبحث عن إله كما هو الشأن في الهندوسية فالناس – من وجهة نظرهم – يشقوا كثيراً بالآلهة. ولذلك نجد تعاليم بوذا تدور كلها حول الأساس الخلقي : لا تقتل . لا تسرق. لا تشرب خمراً. لا ترقص. لا تكذب . لا تزن . لا تكون مترفا... إلخ. وكان أهم شئ اتجه إليه بوذا هو العمل على إلغاء نظام الطبقات الذي أوجدته الديانة الهندوسية، لأن الناس عنده سواسية لا فرق بين صغير وكبير، وتفاوتهم يكون حسب طهارة نفوسهم وما تتحلى به من حب وعطف وتسامح نحو الآخرين(١٥).

والواقع أن طابع البوذية وروحها غريب تماماً عن التعصب الأعمى تجاه أولئك الذين يختلفون معها في الرأي، وهو ما كان واضحا في استقبال البوذية وتعاملها مع المذاهب الأخرى، حيث لم ترفض هذه المذاهب والمعتقدات رفضا عنيفا ولم تدنها بغير تردد، بل سمعت لها بالاستمرار، وامتد الأمر لما هو أبعد من ذلك بسعي البوذية إلى ضم هذه المعتقدات والممارسات إلى المعتقدات البوذية.

وكانت الصلاة بين الهند والغرب من قبل الميلاد، حيث كان التجار العرب هم واسطة هذه الصلاة تقريبا. فبلادهم قرية من الهند تقع على بحر العرب كما تقع الهند، وسفنهم هي التي كانت تقوم بنصيب كبير في نقل التجارة بين الهند وبين هذه البلاد. ومن الطبيعي أن يكون التجارة والبحارة العرب بحكم عملهم أكثر صلة بالهنود. وحين ظهر الإسلام، ودخل العرب في دين الله، كان منهم هؤلاء التجار والبحارة العرب، فحملوا معهم دينهم الجديد إلى البلاد التي يتعاملون معها. وقد وصل المسلمون إلى الهند على ثلاث موجات مميزة، كان وصولهم الأول إلى سواحل جنوبي الهند كدعاة للدين وتجار، ورغم أنهم جاؤا بأعداد قليلة فقد استمر وجودهم حتى القرن الخامس عشر. والموجة الثانية لوصول الإسلام إلى الهند حدثت في عهد الحجاج بن يوسف، حين نظم حملة ناجحة في عهد الأمويين، قادها محمد بن القاسم سنة ٧١١م. وقد نتج عن هذه الحملة ضم السند إلى الخلافة الأموية . وكانت بلاد السند الإقليم الوحيد الذي حكمه العرب مباشرة أو الذي احتك بهم مباشرة. ورغم أنه كان إقليماً بعيداً عن الخلافة فقد كان الطريق الرئيسي الذي انتقلت من خلاله العلوم الهندية إلى بغداد وقد زار السند العربية جغرافيون مسلمون كالمسعودي (توفي سنة٩٥٦م)، وابن حوقل والاصطخري. وسلكت الموجة الثالثة طريق ممرات أفغانستان الشمالية الشرقية. وقد بدأت بغزوات محمود الغزنوي (٩٩٨ – ١٠٣٠) وتأسيس السلطة الغزنوية في البنجاب. وفي عهد الغزنويين، أصبحت لاهور قاعدة للثقافة الإسلامية في الهند. ونشأ نمط مميز من الثقافة الهندية الإسلامية في جنوبي الهند المعروفة باسم الدكن في ظل البهامنيين (١٣٤٧ – ١٥٢٧) . وربما كانت أقل رقيا من حضارة الشمال لكنها كانت أكثر لينا منها. وكان انجازها الثقافي الرئيسي، بخلاف عمارتها المحلية ، يتمثل في تطوير اللهجة الدكنية للغة الأوردية التي أنتجت أدبا غنيا وسليما من

النثر والشعر قبل مدة طويلة من تحول الهند الشمالية إلى الأوردية كلغة أدبية. وقد نقلت العلاقات التجارية تأثير العمارة البهمانية إلى المسلمين على الساحل الشرقي لأفريقيا ولكن قيام الإمبراطورية المغولية على يد بابر (وهو من أتراك تيمورلنك) سنة ١٥٢٦ من بمثل أعلى ما وصلت إليه الهند الإسلامية من روعة وسلطة سياسية وازدهار ثقافي[١٦].

وفي مجال الرياضيات والفلك، اتصل المسلمون بالهند، وأخذوا عنهم قبل أن يتصلوا – اتصالا وثيقا- باليونان . فقد ذكروا أن وفداً من الهند وفد على أبي جعفر المنصور سنة ١٥٤هـ وفيهم رجل ماهر في معرفة حركات الكواكب وحسابها، وسائر أعمال الفلك على مذهب علماء أمته، وكان معهم كتاب الفلكي الرياضي، برهمبكت" فكلف المنصور ذلك الهندي بإملاء مختصر الكتاب، ثم أمر بترجمته إلى اللغة العربية، وباستخراج كتاب منه تتخذه العرب أصلا في حساب حركات الكواكب، وما يتعلق به من الأعمال فتولى ذلك الغزاري، وعمل منه زيجاً اشتهر بين علماء العرب، حتى أنهم ظلوا يعملوا به إلى أيام المأمون، حيث ابتدأ مذهب بطليموس في الحساب والجداول الفلكية [١٧] .

لقد أخذ العرب المسلمون كثيراً من نظريات الهند في الحساب والهندسة وبعض المصطلحات الهندية مثل مصطلح "الجيب" في حساب المثلثات، ولكن لم تنل العرب من التقنيات والشهرة العلمية في هذه التخصصات عن طريق ما أخذوه من علماء الهند، ذلك أنها كانت عبارة عن مصنفات عملية قاصرة على منطوق القواعد، وشرح استعمال الجداول، خالية من البراهين والتحليلات.

كذلك كان في بغداد أطباء هنود، يمثلون الطب الهندي – بجانب الطب اليوناني – اشتهر منهم في عهد الرشيد "صالح بن تتهله الهندي" [١٨].

ولقد واجه الإسلام في شبه القارة الهندية تحديين خارجيين هددا هويته، وهما: التحدي الهندوسي والتحدي الغربي، فالحضارة الهندوسية، رغم بنيتها الطبقية، أقدر على استيعاب العنصر الغربية وتمثلها أكثر من أي حضارة أخرى. ولقد كان الإسلام وحده هو الذي استطاع، بفضل توحيده الصارم وعزلته الطائفية، أن يقاوم قوة الجذب التمثيلية الهندوسية، لكن الاتصال والصراع بين الديانتين والحضارتين أديا إلى نشوء جماعات هامشية ضئيلة الحجم مثل البراهيميين والحسينيين الذين تأثروا بالفئتين الإسماعيليتين الرئيسيتين في الهند، البهرة والخوجيين، كما أديا ضمن الهندوسية إلى نشوء حركة البهاكني الصوفية التوفيقية في القرن الثالث عشر، وإلى تشكيل ديانة السيخ التي أصبحت فيما بعد عدواً لدوداً للإسلام(١٩).

والواقع أن قدراً كبيراً من الصراع السياسي بين الهندوسي والمسلمين في العصور الحديثة، إنما هو إرث الصراع الديني والثقافي الذي نشب في التاريخ الوسيط وأوائل التاريخ الحديث.